جينالولجيا الإصلاح الديني الأوروبي

د. وداد بيلامي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية

كان الإصلاح الديني هو الحدث الأبرز والأكثر أهمية في التاريخ الأوروبي للقرن السادس عشر، فقد أسهم في تفكيك السلطة البابوية وتعزيز النزعة الفردية، والمشاعر القومية، ولعل ذلك تم دون قصد. فمارثن لوثر **Martin Luther** لم يكن من الهراطقة، ولا نتاجا مباشرا للنهضة الأوروبية، التي نمت قبيل انطلاقة حركته الإصلاحية. لكن المفارقة، أن حركته تلك أفضت إلى العلمانية المعاصرة.

مفهوم الإصلاح الديني

سنحاول الخوض في مفهوم الإصلاح الديني الأوروبي من خلال مصادر الفترة

خلال الفترة القديمة ومن خلال قاموس اللاتينية- الفرنسية ل Félix Graffiot Dictionnaire latin français, Hachette, 1934 , نلاحظ أن كلمة Reformatio اللاتينية تعني تغيير الحالة الراهنة السيئة بالعودة الى الزمن الأول الذي يوسم بكونه افضل[1] .

[1] Félix Graffiot , Dictionnaire latin français, Hachette, 1934 ,p.1330.

وفي العصور الوسطى ومن خلال *Les Conciles œcuméniques : Les Décrets, II-1 : De Nicée I à Latran V.* Édition française : بمفهوم Reformatio، غالبًا ما تم استخدام مصطلح الإصلاح والتغيير وفي سياق الإصلاحات المتعلقة بنظام الرهبان . حيث كان هذا النظام قد شرع في عملية إصلاح لمحاربة تراجع الانضباط والالتزام الدينيين. ومنه ولدت إحدى أهم حركات الإصلاح داخل نظام الرهبنة في القرن العاشر في دير كلوني وأحد أهم[2].

وبعدها ومن خلال Concile de Constance, session 3, 26 mars 1415 نلاحظ انه تم تطبيق فكرة أن الإصلاح وكان امرا ضروريًا على الكنيسة بأكملها حيث كانت المجالس الدينية وجميع برلمانات الإمبراطورية الرومانية المقدسة معنية بالإصلاح. واعتبر مجمع كونستانس (1414-1418) ضرورة إصلاح الكنيسة "في رأسها وفي أعضائها" وحثت وثيقة تم تداولها على نطاق واسع من أجل الإصلاح بعنوان "إصلاح الإمبراطور سيغموند" على استعادة النظام العادل في جميع مجالات الحياة تقريبًا. في نهاية القرن الخامس عشر ، طُبق مفهوم الإصلاح أيضًا على الحكومة والجامعة[3].

وفي تتبعنا للمفهوم الإصلاح من خلال المصادر لاحظنا ان لوثر نادرا ما استخدم نفسه مفهوم "الإصلاح". قال لوثر في"شرحه للأطروحات الـ95": **"الكنيسة بحاجة إلى إصلاح ليس من**

---

[2] Concile de Constance, session 3, 26 mars 1415 : G. Alberigo (dir.), *Les Conciles œcuméniques : Les Décrets, II-1 : De Nicée I à Latran V.* Édition française : A. Duval, B. Lauret, H. Legrand, J. Moingt et B. Sesboüé (éd.), Paris, Éd. du Cerf (coll. « Dictionnaires »), 1994, p. 841.

[3] Voir The Lutheran World Federation and Pontifical Council for Promoting Christian Unity, *The Apostolicity of the Church : Study Document of the Lutheran-Roman Catholic Commission on Unity*, Minneapolis, MN, Lutheran University Press, 2006, 92, n. 8.

عمل رجل واحد ، ألا وهو البابا ، أو عدة رجال ، أي الكرادلة ، وهذا ما أظهره المجمع الأخير؛ لكنه عمل العالم كله ، وهو في الو اقع عمل الله وحده. ومع ذلك ، فإن الله وحده الذي خلق الوقت يعرف لحظة هذا الإصلاح. "[4]. واستخدم لوثر أحيانًا كلمة "إصلاح" للإشارة إلى تحسين أداء الجامعات ، على سبيل المثال. في معاهدته الإصلاحية "للنبلاء المسيحيين" لعام 1520 ، دعا إلى إنشاء "مجلس حقيقي ، يعمل بحرية" حيث يمكن مناقشة مقترحات الإصلاح[5].

وجاء مصطلح "الإصلاح" ليُستخدم ، بالمعنى الضيق ، للإشارة إلى مجموعة الأحداث التاريخية الممتدة من 1517 إلى 1555 ، أي منذ عرض "أطروحات 95" لمارتن لوثر حتى صلح أوغسبورغ. سرعان ما انخرط الجدل اللاهوتي والكنسي الذي أثاره لاهوت لوثر في المسائل السياسية والاقتصادية والثقافية الخاصة بالوضع في هذه الفترة. ما يسمى اليوم "الإصلاح" يغطي أكثر بكثير مما علّمه وأحدثه لوثر نفسه. ولقد كان ليوبولد فون رانكي هو الأول والوحيد الذي جعل مفهوم "الإصلاح" في القرن التاسع عشر مكافئًا لعصر كامل ، وذلك بتعميم تعبير "زمن الإصلاح"[6].

---

[4] Luther, *Explications des 95 thèses*, trad. angl. C. W. Folkemer, dans H. T. Lehmann et J. Pelikan (ed.), *Luther's Works,* American Edition, 55 volumes, Philadelphia/St Louis, Muehlenberg/Fortress – Concordia, 1955-1986, 31 : 250 (= LW) ; D. Martin Luthers Werke. Kritische Gesamtausgabe (Weimarer Ausgabe), Weimar 1883-2009, 1 ; 62,

[5] Luther, *À la noblesse chrétienne de la nation allemande sur l'amendement de l'État chrétien,* trad. M. Gravier, dans Œuvres, Paris, Gallimard, 1999, p. 595 ; Œuvres, tome II, Genève, Labor et Fides, 1966, p. 84

[6] Léon X, *Cum postquam,* 9 novembre 1518, DH 1448, cf. 1467 et 2641. Pour les textes dont la référence est donnée par le sigle DH, nous utilisons la traduction française de H. Denzinger, *Symboles et définitions de la foi catholique. Enchiridion Symbolorum,* édité par P. Hünermann pour l'édition originale et par

ويقصد بتلك الحركة الدعوة إلى العودة إلى الديانة المسيحية الصحيحة المستمدة من النصوص الأصلية للإنجيل، والتخلص من احتكار البابوية في روما ومختلف أجهزتها الفرعية في القارة لتفسير الكتاب المقدس وتوضيح مبادئ العقيدة، وهو عمل اعتبرته الحركة حقا لكل المسيحيين ومظهرا من مظاهر حريتهم. ومن ثمة تركز اهتمام زعماء الإصلاح على ترجمة الإنجيل إلى اللغات القومية لكي يطلع عليه كل مسيحي في لغته ويستطيع أن يفهمه ويمارس عقيدته في ضوء ذلك الفهم دون وساطة رجال الكنيسة الرومانية

جيانولوجيا الإصلاح الديني

يعتبر تاريخ اعلان مارثن لوثر احتجاجه على صكوك الغفران يوم 31 من شهر أكتوبر العام 1517 بداية فعلية وتاريخية للإصلاح البروتستانتي. وهو التوقيت الذي كان يتوافق مع إعادة قراءة أصول الإصلاح من قبل لوثر نفسه وأتباعه. وخلال عام 1530 ، راجع لوثر كل ما قام به منذ عام 1517 وأظهر نقدا وتعليقا على ما كتبه في هذا السياق ونشر هذا خلال سنة 1532 اكد من خلاله أن معركته ضد البابا تعود بداياتها تاريخ إلى 31 أكتوبر 1517. وفي عام 1541 ، Friedrich Myconius كان قد بدأ في كتابة مؤلفة ***Histoire de la Réformation*** تاريخ الإصلاح (نُشر فقط عام 1715) حيث استعمل فيه مصطلح الإصلاح و في عام 1546 ، نشر Melanchthon ميلانشثون une biographie de Luther سيرة لوثر التي ذكر فيها لأول مرة ، أنه تم عرض 95 أطروحة ، وأنها كانت

J. Hoffmann pour l'édition française, Paris, Éd. du Cerf (coll. « Dictionnaires »), 1996 (NdE).

البادرة الافتتاحية للإصلاح. ، وفي عام 1555 ، حدد المؤرخ Johann Sleidan يوهان سليدان أيضًا أطروحات 95 كحدث تاريخي لبداية الإصلاح.[7]

اصلاح ما قبل الإصلاح الديني :

بالنسبة للعقول المقتنعة بأن الحقيقة موجودة في العصور القديمة وأن أي جديد هو حامل للخطأ ، فإن ظهور حركة الاحتجاج ضد الكنيسة الرومانية التي انبثقت عن لوثر والتكون التدريجي للطوائف المسيحية الجديدة لا يمكن إلا أن يثير المتاعب. وكان لابد من إثبات أن ما سمي لاحقًا بالبروتستانتية لم يكن شيئًا جديدًا ، لقد كان مجرد عودة إلى التقاليد. وتم استخدام وسائل مختلفة لإنكار التمزق الذي ظهر في المسيحية في القرن السادس عشر. و تمكنا الكتابات التاريخية من إظهار الصلة بين العقيدة الإصلاحية وعقيدة المسيحيين الأوائل.

وما ستحاول تتبعه وتأكيده من خلال مصادر الفترة هو حقيقة بوادر حركة الإصلاح الديني التي ظهرت مبكرًا جدًافي الجيل الأول ، ونمت بشكل ملحوظ ، حتى كسوف القرن الثامن عشر.

فخلال القرن الرابع عشر امتدت دعوة إصلاح العقيدة المسيحية إلى إنكلترا حيث ظهر القس ويكلف Wicleff (1324-1384م) الذي كان أستاذا للاهوت في جامعة أوكسفورد. ومثلما فعل

---

[7]Yves Krumenacker, *Luther*, Paris, Ellipses, 2017. La question du choix du 31 octobre est évoquée dans Volkmar Joestel, *« Hier stehe ich ! » Luthersmythen und ihre Schauplätze*, Wettin-Löbejün, Verlag Janos Stekovics, 2013. De nombreux aperçus dans Petra Bosse-Huber, Serge Fornerod, Thies Gundlach et Gottfried Wilhelm Locher (dir.), *Célébrer Luther ou la Réforme ?*, Genève, Labor et Fides, 2014. Hartmut Lehmann, *Luthergedächtnis 1817 bis 2017*, Göttingen, Vandenhoeck & Ruprecht, 2012 ; id., « "Ein Ereignis von Weltrang". Anträge und Debatten zur Lutherdekade und dem Reformationsjubiläum 2017 im Deutschen Bundestag 2008 bis 2011 », *ibid.*, p. 117-130.

فالدو في فرنسا، فإن ويكلف فعل هو الآخر في إنكلترا، إذ ترجم الإنجيل إلى الإنكليزية ودعا الناس إلى قراءته باعتباره المصدر الأساس للعقيدة المسيحية، وأن يرفضوا كل ما لم يجدوه فيه من مبادئ وأفكار وصلت إليهم بواسطة رجال الدين الذين تعينهم الكنيسة، ومن ذلك فكرة الصور والتماثيل، وصلوات القديسين، وتحول القربان وخمره إلى دم المسيح وجسده، والجهر بالإيمان، ومسألة الحرمان، وإجراء الشعائر باللغة اللاتينية، والإعتراف بسلطة البابا في روما وممثليه من القساوسة في المدن، ومبادئ وأفكار أخرى كثيرة اعتبرها المصلح الإنكليزي كلها باطلة وقال بأنها من اختراع الكنيسة وحدها[8].

وفي تلك الفترة ذاتها، وهي فترة القرن الرابع عشر، كان قس آخر ببلاد التشيك بأوروبا الشرقية، قد اطلع على أفكار المصلح الإنكليزي واقتنع ببعضها، وهو جون هوس Jan Hus (1373-1415م) الذي كان يشتغل أستاذا في جامعة براغ، ثم صار عميدا للجامعة نفسها. وكان من بين المبادئ التي دعا إليها أن العصمة في الإنجيل وليست في الكنيسة، وأن ضريبة العشر التي يدفعها المسيحيون لرجال الدين ليست مشرعة من الله. ولكن المصلح التشيكي استمر مع ذلك يعتقد في بعض المبادئ الأخرى التي أبطلها ويكلف، ومنها صلوات القديسين، والصور والتماثيل، والجهر بالإيمان، وتحول القربان وخمره إلى جسد المسيح ودمه[9].

وفي القرن الخامس عشر لم تبق الدعوة إلى إصلاح العقيدة المسيحية مقتصرة على المناطق الموجودة في أطراف أوروبا، وإنما انتقلت إلى إيطاليا نفسها حيث يوجد مقر البابوية،

---

8 Luther, Op.Cit ,P.86

9 Luther, Op.Cit ,P.88.

وذلك على يد الأب الدومينيكاني جيرولامو سافونارولا Girolamo Savonarolla (1402-1492م) الذي اتخذ من فلورنسا مركزا لدعوته إلى تطهير المسيحية من الشوائب التي علقت بها إبان العصر الوسيط، والعودة بها إلى أصولها الأولى كما نزلت على المسيح. ومن ثمة ألغى سافونارولا ألعاب القمار، وأغلق الحانات التي اعتاد الشباب المنحرفون الإجتماع بها وممارسة الأعمال غير الأخلاقيةن ومنع ممارسة اللواط الذي كان منتشرا في المدينة وقرر معاقبة ممارسيه بقسوة شديدة، كما منع على النساء اللائي يمارسن البغاء من الظهور في الشوارع في الألبسة التي اعتدن ارتداءها لجذب الرجال إليهن. واهتم سافونارولا في الوقت ذاته بتربية الشباب وتعويدهم على الحياة الصحيحة القائمة على خشية الله وطاعته، وهي الحياة التي انجذب إليها كثير من الناس، وصاروا يتجولون جميعا مع زعيمهم في شوارع فلورنسا لمحاربة مظاهر الانحراف بها، وكانوا يشتبكون مع مناوئيهم المنحرفين والمنحرفات ويضربونهم بالحجارة. وفوق ذلك كله كانوا يقومون بجمع أدوات القمار من حجارة وصور، وكذلك مساحيق التجميل التي تستخدمها النساء، والصور التي بها مظاهر خليعة والكتب التي تصف قصص الغرام والسلوكات المنحرفة، ويقومون بحرق كل ذلك في الساحة العامة بالمدينة. وما هي سوى مدة وجيزة حتى أصبح كثير من الفلورنسيين يمارسون الشعائر الدينية التي طالما أهملوها، ويؤدون الصدقات، ويعيشون حياة بسيطة كما تتطلبها أصول العقيدة المسيحية[10].

[10] Vivet (Jean Pierre), Les mémoires de l'Europe, T. II : Le Renouveau européen 1453-1600, Paris, Robert Laffont, 1971. (وثائق ونصوص حول تاريخ أوروبا، ج 2، التجديد الأوروبي بين عامي 1453-1600م)، ص 141-142.

وبالرجوع الى كتابات مارثن لوثر نفســه يمكن للمرء أن يجد محاولة للبحث عن بوادر لتحدي الكنيسة الرومانية. قد يبدو هذا متناقضًا ، لأن لوثر يدرك أهمية القطيعة ، لدرجة الشك في مواقفه عندما كان يكتب : "كم مرة ارتجف قلبي ، وأوقفني ، لما تستمر في في تقديم أقوى حجك للتصحيح والإصلاح ،هل أنت فقط الحكيم ؟ هل الجميع مخطئون ، وهل العديد قبلك من الأجيال عاشت في الظلام؟ "

ولكن مارثن لوثر كان مقتنعا بأن تعاليمه ليســت مبتكرة ، وانها مجرد عودة إلى الكتاب المقدس ، وإصــلاح للمســيحية: "أعتقد أنني قمت بإجراء إصــلاح (...). لقد دفعت البابويين نحو الكتب وبالأخص الكتاب المقدس ، ودفعت بالوثني أرسطو وعلماء اللاهوت المرتبطين بعيدا عنا ، حتى لا يتزعموا و يعملوا المنابر. المدارس. "[11]

و تؤكد كتاباته ، بإنه يشعر بالارتياح لرؤية أن الآخرين الذين سبقوه فعلوا الشيء نفسه ، ولا سيما جون هوس الذي نشر لوثر مقتطفات من رسائله .

ففي الطبعة الأولى ، في فيتنبرغ عام 1536 والمكونة من أربع رســائل من هوس ، كتب لوثر أن الحقيقة قد تم الكشف عنها في مجلس كونستانس ، وأنها تعرضت للهجوم ، لكنها الآن منتصرة. ويضيف ، مع ذلك ، أن الرسائل تمت ترجمتها بناء على طلب الإمبراطور تشارلز الخامس ؛ لذلك فإن الأمر لا يتعلق بتعيين سلف لوثر بقدر ما يتعلق بإظهار الأخطاء المحتملة لمجلس يريد القضاء على الانقسام بالقوة[12].

[11] Vivet (Jean Pierre) ,Op.Cit,P.89.

[12] Ibid, P.91.

وفي مقدمة طبعة رسـائل جون هوس لعام 1537 ، يعتبر لوثر مصـلحا "مسـيحيًا حقيقيًا" أنتج ثمارًا جيدة. وكانت جريمته الوحيدة أنه اعلن صـراحة أن البابا الفاجر ليس لا يمكن ان يكون المسـؤول الأول والأخير عن الكنيسـة الجامعة. ويضـيف لوثر أن أحداثًا مماثلة حدثت عندما تم التبشـير بالغفران من طرف يوحنا هوس . فهو يعترف صـراحةً بأن هوس هو أحد أسـلافه. ويوضح أنه عندما كان لا يزال طالبًا لاهوتيًا في إرفورت قد قرأ عظات يوحنا هوس وأنه اكتشـف فيه مفسـرا ممتازًا للكتاب المقدس ، لكنه لم يجرؤ على التحدث عنه بمديح ، لأن اسـم هوس كان في نظر من عاصروه من الهراطقة[13].

ونشـر لوثر أيضًـا أعمال هوس ، في 1538 الرحمة اللامحدودة للألمان De immensa Dei misericordia erga Germanos: ex collatione Sermonum Husi ad unum sermonem Martini Lutheri (Lipse، 1538). وهـذا مـا أكـد حقيقـة وجود رابط بين هوس ولوثر Luther-Hus. وقـد تنقيحه وإعادة نشـره من خلال طبعات أخرى من في القرن السـادس عشـر ، ورغم ما لاقاه هوس واعتراضـات الكنيسـة أصـبح رائدًا للإصـلاح. ويختلف لوثر من هذه الحقيقة ، قائلاً في وقت مبكر يعود إلى عام 1521: "لقد فعلت خمس مرات أكثر من هوس

لقد كان لوثر سعيدًا باكتشافه أن معارضة البابوية كانت موجودة في الماضي ، ثم في هوس أو في كالفن.

[13] Paul de Vooght, *L'hérésie de Jean Huss,* 2 vol., Louvain, Publications universitaires de Louvain, 1975,P.65.

بالنسبة لوثر ، الصمود هو علامة على الحقيقة. وينطبق الشيء نفسه على كالفن ، الذي يعتبر أنه ، حتى في أوقات الفساد الأكبر ، لم يكن هناك قط انقطاع في الاستمرارية. بالنسبة ظلت الكنيسة إلى حد كبير على حالها على مر القرون وظلت بذور التغيير [14].

"إنه لأمر مثير للإعجاب وجدير بالذاكرة الدائمة ، أنه مع ازدياد الظلمة والطغيان على كنيسة الله ، أقام الله شخصيات مقدسة واحدة على الأخرى ، استخدمها كثيرًا لجمع البذار الذي كان لديه محفوظة لنفسه ، فقط لتأكيد ذلك والتأكيد ضد اعتداءات وإغراءات هذا العالم من خلال استعادة عقيدته. "

اللافت في هوس ، عندما تم تعيينه عام 1402 واعظًا في ما يسمى بكنيسة بيت لحم في براغ ، ليس جرأته الثورية ، بل امتثاله العام. لم يكن لاهوته تقليديًا تمامًا فحسب ، بل كان وعظه وإصلاحيًا وعاطفيًا كما كان ، ويشوه رذائل رجال الدين ، ويدعو إلى إصلاح الكنيسة ، كان جزءًا من حركة أطلقها قبل أربعين عامًا رئيس أساقفة براغ نفسه. لم يتوقف خط كامل من الدعاة الإصلاحيين عن الاحتجاج منذ ذلك الحين ضد الانتهاكات والفضائح التي دمرت كنيسة بوهيميا. لم يكن هوس أكثر عنفًا من أسلافه. لكن مع دخوله المشهد ، سيسمح عنصر جديد لمناهضي ، التي تم Wiclifالإصلاحيين بقيادة الهجوم ضد الإصلاحيين وجعل الوضع متفجرًا: هذه هي أفكار تداولها في براغ منذ نهاية القرن الرابع عشر. منذ عام 1403 ، بدأت المعركة مع أو ضد أطروحات - التي تم ذكرها بدقة أو أقل - وتجاوزت إطار النزاعات الأكاديمية البسيطة[15].Wiclif

---

[14] Paul de Vooght, *Op.Cit, P.67.*

[15] ves Congar, « Ecclesia ab Abel », dans *Abhandlungen über Theologie und Kirche,* (repris dans *Études d'ecclésiologie médiévale,* Londres, Variorum Reprints, 1983). Düsseldorf, 1952, p. 79-108.

في 6 يوليو 1415 ، أي قبل ستة قرون بالضبط ، مات السيد جون هوس 2 ، الكاهن والعميد السابق لجامعة براغ ، على المحك. في هذه السنوات التي شهدت انتهاء حضارة القرون الوسطى العظيمة تدريجياً من الألم ، لم تعد أورشليم هي التي قتلت الأنبياء ، بل روما. جان هاس ، في الواقع ، هل أخطأ فقط في التحدث كثيرًا ، أو ربما بسبب سماعه كثيرًا؟ لأن الكلمات التي ألقاها في خطبه في كنيسة بيت لحم في براغ تطابقت إلى حد كبير مع التوقعات وخنقت نزاعات الآلاف من المسيحيين ، بما في ذلك بين الكهنة. في سلالة فرنسيس الأسيزي وبيير فالدو وجون ويكليف وآخرين ، وقبل الناري جيروم سافونارولا 3 ، شجب الثروات الفاضحة للمؤسسة الرومانية والضرائب المخزية التي فرضها البابا على أوروبا كلها. في الكنيسة ، يُشترى كل شيء ويباع كل شيء وذلك لتحقيق ربح أكبر للمسؤولين. في بوهيميا ، تمتلك الكنيسة ما يقرب من نصف الأرض (بينما يمتلك الملك السدس فقط). وإلى جانب السيمونية التي سادت ، تجرأ جون هاس أيضًا على وضع إصبعه على نفاق العديد من الأساقفة (بما في ذلك البابا) المتعطشين للسلطة وملذات الذنب. في كونستانس ، للترحيب بالمجلس (الذي عقد من 1414 إلى 1417) ، كان من الضروري ليس فقط إنشاء بيوت دعارة جديدة ، ولكن أيضًا وجود عدد كبير من البغايا الخاصين من أجل رفاهية أعضاء المجلس 4. في مواجهة مثل هذه الفضائح ، كانت هناك دعوة من جميع أنحاء أوروبا لإصلاح الكنيسة. وهكذا ، في هذه السنوات الأولى من القرن الخامس عشر ، ذهب جان هاس إلى بوهيميا لتجسيد هذا الادعاء. ومع ذلك ، في كونستانس ، أدين هاس "بالهرطقة". من المفهوم أن خطاباته العديدة ضد فساد رجال الدين عملت ضده ، لكن هذا لا يكفي لتبرير اتهامه بالهرطقة. كيف كان يوحنا هوس زنديقًا في نظر روما؟ أو ، بعبارة أخرى ، كيف كان نذيرًا للإصلاح في القرن السادس عشر ، حيث أنه من

الشـائع رؤيته على أنه مصـلح سـابق؟ يجب أن يسـاعدنا عرض السـياق وإلقاء نظرة على عمله في الإجابة على هذا السؤال.

ماذا كان أساس انشقاق جان هوس؟ يمكننا القول ببساطة أنه عارض الكنيسة في عصره، لكن هذا سيكون تفسيرًا قاصرًا إلى حد ما، لأن ليس كل المعارضين منشقين. إن الفرضية الكامنة وراء هذه الصفحات هي أن انشقاق هوس هو في الأساس نسبية المؤسسة الكنسية أو، على نحو أدق، عدم التقيد بها. وبما أن معظم الانتقادات التي وجّهها رئيس أساقفة براغ والكوريا الرومانية إلى الواعظ تتعلق بالمسائل الكنسية، فسوف نركز هنا على هذا المجال وحده.

أما الدعوة إلى إصلاح الجهاز الكنسي فقد ظهر في شكل انتقادات موجهة من مفكرين كبار آنذاك إلى رجال الدين على ابتعادهم عن المسيحية واستغلال مراكزهم لتحقيق أغراضهم الدنيوية الخاصة، بالإضافة إلى عجزهم عن أداء واجباتهم الدينية في الكنائس التي هم مسئولون عنها[16]. وكان إيراسموس (1419-1536م)، المفكر الإنساني الهولندي الشهير، أكبر من عالج في مؤلفاته ذلك الوضع السيء الذي بلغته الكنيسة. فقال في مؤلفه مدح الجنون الذي صدر في عام 1510م، واصفا تهافت رجال الدين على تحقيق مآربهم الشخصية :

"إن الأساقفة يحبون أن يموتوا في كل مكان عدا ميدان القتال، وإن العمل الذي يوحدهم هو الصراع للحصول على ما يدعون من حقوق في الصدقات، ويستعملون من أجل ذلك مختلف أسلحة القتال مثل السيوف والرماح والحجارة. وكم يكون حماسهم شديدا عندما يقرأون النصوص الدينية التي تتعلق بالصدقات لاقناع الناس بدفعها إليهم، ولكنهم في الوقت ذاته لا يتذكرون قراءة

16 حول وضع الكنيسة وحياة رجال الدين في أوروبا قبل حركة الإصلاح الديني، راجع المحاضرة الأولى حول أوروبا في العصر الوسيط.

النصـــوص التي تتعلق بواجباتهم تجاه هؤلاء الناس. وإن الأكاليل التي يحملونها فوق رؤوســـهم لا تذكرهم أبدا بأن رجل الدين يجب أن يتنزه عن مظاهر الطمع، وألا يفكر سوى في نعيم الجنة"[17].

بينما كان مختبئاً، بين عامي 1412 و1414، كرس هوس نفســه لكتابة عدة نصـوص، بما في ذلك أطروحته عن الكنيسة، التي من المحتمل أنه بدأها في عام 1410 وأكملها في عام 1413، مستنداً بشــكل كبير على عمل ويكليف الذي يحمل نفس الاســم De ecclesia)، 10(1378-1377 دون أن يقتبس من مؤلفه الذي اعتبره طبيباً كاثوليكياً. ينتمي كتاب "دي إكليســيا" إلى نوع لاهوتي لم يكن ممثلاً بشـكل جيد في العالم المدرسـي، بل إنه لم يكن موجودًا تمامًا قبل القرن الرابع عشـر. كيف يعرّف هوس الكنيسة؟ ليس على أساس المؤسسة المنظورة، ولا على أساس البابا، بل على أساس البابا، ولكن - على حد تعبير ويكليف نفســه - على أنها كل الموعودين بالخلاص. "إن الكنيســة الكاثوليكية المقدســة، أي الكنيســة الجامعة، هي كل المقدســين في الحاضــر والماضــي والمســتقبل".11 مثل كنيســة أوغســطينوس12، كنيســة الله هي كل المقدســين. مثل كنيســة أوغســطينوس12، كنيســة هوس تبدأ مع هابيل وتشـمل، من خلال أخنوخ ونوح وإبراهيم وموسـى وصـولاً إلى آخر الأبرار. قد يبدو هذا غير مؤذٍ: على العكس، بالنسبة لهوس يشكل الحجة الرئيسية ضد البابوية والنظام الأسقفي الذي لا يتعلق في النهاية إلا بجزء من الكنيسة[18].

وبالرجوع إلى مصادر الفترة في محاولة لتتبع جينالوجيا الإصلاح الديني الأوروبي نلاحظ أن الحركات الإصلاحية اتخذت منذ نهاية العصر الوسيط أشكالاً مختلفة، جماعية وفردية، ودعت في مجملها إلى التصدي لهيمنة الكنيسة وضرورة الرجوع للعقل حيث انتعشت الجامعات بعيدا عن

---

17 Funck-Beentano (Franz), La Renaissance, Paris, Fayard, 1984. (النهضة الأوروبية)، ص 119-121.

18 Jan Hus, *Tractatus de ecclesia.* En l'absence d'une réelle édition critique, on se réfère ici à l'édition de S. Harrison Thomson, Prague, Komenského evangelická fakulta bohoslovecká, 1958. Il en existe une traduction anglaise par David S. Schaff : John Huss, *The Church*, Wesport Conn., Greenwood Press, 1974 (1re éd. New York, C. Scribner's Sons, 1915),P.54.

اللاهوت، فدرّست مواد كالفلسفة، والقانون، والفيلولوجيا التي كشفت تحريفات الإنجيل بالعودة إلى النص الأصلي المكتوب بالإغريقية. وتعاظم رجال القانون على حساب رجال الدين، وتلقى الرهبان تعليما جامعيا انعكس فهما جديدا للاهوت وجسد من خلال ما عرف "الإصلاح الديني الأول". لكنها تعرضت لقمع شديد ومتواصل من طرف الكنيسة والقوى الإقطاعية. إلا أنّ الأفكار المستمدة من التراث العقلاني التي عبَّر عنها المصلحون في وقت متأخر من العصر الوسيط، كانت أكثر أهمية بالنظر إلى الدور الذي لعبته في التمهيد لأفكار القرن السادس عشر البروتستانتية التي أفرزت واقعًا تاريخيًّا كان له كبير الأثر في التأسيس لأفكار جديدة أخرى أكثر جرأة، خاصة في المرحلة اللاحقة المعروفة بعصر التنوير. وإن كان مصيرُهم هو الإحراق أحياءً على يد الكنيسة الكاثوليكية.